ملامح الرومانسية

في

شعر صفاء الحيدري

د. صفاء الدين أحمد فاضل

أستاذ النقد الأدبي الحديث والبلاغة

قسم اللغة العربية - كلية التربية/ الأصمعي – جامعة ديالى

ملخص البحث باللغة العربية

ملامح الرومانسية في شعر صفاء الحيدري

. دراسة نقدية .

ظهرت الرومانسية مدرسة أدبية تقوم على تجاوز القواعد المقررة من خلال الإيمان بتفوق سلطة الخيال على سلطة العقل، والاعتماد على الرمز والغموض والانطلاق في عالم الخيال الذي يجنح إلى الفردية والى الرؤية الذاتية.

ويبدو ان جماعة ابولو الشعرية القائمة على مبادئ النضج النقدي الحديث، قد آمنت بفحوى هذا الاتجاه الشعري، فأصبح للشعر العربي بعد الثلاثينيات دلالة ومفاهيم حديثة، نتيجة لفهم الشاعر الصادق لتجربته الشخصية، فرأينا شعراء هذه المدرسة يفرون إلى الشعر الرومانسي جراء ظروف حياتهم القاسية .

وصفاء الحيدري كان من المتأثرين بهذه الحركة الجديدة (مدرسة ابولو الشعرية)، إذ نظم أغلب قصائده عل الجو الرومانسي الذي وجد في أحضانه ملاذا امناً ليجسد فيه الآمه والآم الوطن العربي، معبراً عنها بروح صادقه نابعة من تجربته الشعورية، أي اتخذ من ذلك اتجاهاً للتعبير الصادق عن آلام الذات وعن معاناته النفسية.

استعمل الحيدري الخيال المبدع في رسم لوحاته، إذ تمكن من تجسيد الحبيبة بأسلوب فني رائع يلفه النغم الحزين الشجي مصورا كل آهات الحرمان واستعذاب العشاق لآلامهم، وكذلك صور الإحباط والإخفاق في الحب ومدى تأثيرهما على النفس.

ويبدو ان الحبيبة عنده ليست حقيقة في بعض الأحيان ، وإنما هي شيء شفاف يغلفه الوهم، إنها لغز محير.

جسد الحيدري قضيته وقضايا أخرى في شعره الرومانسي الذي تجلت فيه العاطفة الصادقة وبدلالات تصويرية بارعة، فهو معبر عن الذوق الفني بأسلوب تخيلي وبنغمة متوهجة متفجرة ومتدفقة حاملة حيوية مشوقة، فالمتأمل في شعره يجده قد أدرك التنظير الرومانسي وأسسه، وهذا دليل ثقافته الأدبية.

الإبداع الرومانسي والتأملات العاطفية في شعر صفاء الحيدري

على الرغم من إن ولادته كانت بتركيا، إلا أنه كان يبصر كل الموجودات التي حوله ويدرك ما يحيط بعالمه وشعبه وأرضه، فعيونه تفتحت على عالم مأساوي، يهتز ويضطرب بدون استقرار، مأساة دنيوية وعالم غريب لاتجد فيه الأمان والسلام .

فضلا عن ذلك، نجد الوطن العربي بصورة عامة حينذاك يملؤه التمرد والعصيان والرفض ويسيطر عليه نتيجة الاستعمار المسيطر عليه من قبل الانكليز.

فالحيدري انطلق من هذه الأوساط ليجسد شعره كل الآلام المحيطة بالوطن العربي، فكلماته كان لها الصدى الواسع في عالمية الإبداع، لأنه تطرق من خلال التجربة الشخصية والمشاعر الذاتية إلى مشاكل المجتمع ومعاناة الناس وآلامهم، فتوسع في رسم الصور ليشمل جوانب من الحياة متعددة.

وبما أن الألم والحرمان والمأساة من أهم عناصر المذهب الرومانسي الذي شاع في الوطن العربي، وبدأ نجمه يتلألأ في سماء الإبداع الأدبي، حيث فرض نفسه وهيمن وأطاح بالنظم الاجتماعية البالية، وأطاح بأنظمة المذهب الكلاسيكي المتمثلة بالتقرير العقلي الذي يسيطر عليه، فازدهرت الرومانسية في أجواء شعبية وتحتل الطبيعة الميدان الواسع في من خلال بساطتها وعذوبتها، فهي تؤمن بالعاطفة وتجعلها ذات مكانة سامية وتنص على (ضرورة التحليق في عالم الخيال والأحلام هربا من عالم الواقع)

فتماشت الحركة الرومانسية مع الحرية الفردية والجماعية التي ازدهرت في ظلها، والوطن العربي أيضا نراه ميدانا رحبا للرومانسية بعد أن بلغت مكانة عالية في الأدب الغربي على يد أعلامها، واحتضنتها بعض المدارس الشعرية كمدرسة ابولو في مصر ولبنان على يد نخبة من الشعراء مثل احمد زكي أبو شادي وإبراهيم ناجي وعلي محمود طه المهندس وغيرهم من الذين ترددت أسماؤهم في عالم الجو الرومانتيكي .... فهذا الاهتمام والاعتناء بهذه الحركة كان له دافعا عند الحيدري ليعتنق الذي سلكه الكثير من شعراء القرن العشرين، ولاسيما جيل الرواد منهم الذين عاصروا الحيدري في الأطوار الأولى من حياته الشعرية .

وعندما نطالع أشعار الحيدري نرى انه تفنن في رسم صوره ، إذ تمكن من رسم صورة للحبيبة ، تتبع من وجدانه وأحاسيسه، ورغم تمكنه هذا فإن الحبيبة عنده ليست حقيقة في بعض الأحيان ، وإنما هي شيء شفاف خلقه الخيال وغذاه الحرمان، إنها لغز محير، كما استدللنا على ذلك من خلال إهدائه إحدى قصائده إلى امرأة لم تخلق بعد، أي كانت حلما لم يتحقق فيقول:

(هذه قصائد حب إلى المرأة التي عشت معها بصمتٍ وعزلة وغربة طيلة السبعينات والستينات والخمسينات والأربعينات ، المرأة لم تخلق بعد ، أو أنها خلقت ولم تعد ولن تعود كانت حلما لم يتحقق ولن يتحقق لأنها كانت مثلا أعلى لكل امرأة ... إليها والى كل إنسان ضائع بدون امرأة . قصائد حبي الكبير هذه وليس كالشعر ما يبقى ويوصل رسائلي هذه إليها ... والى كل امرأة لا تنسى إليها والى الصمت والألم والغربة ... بدون امرأة) [1]

أهناك شيء أكثر دلالة على الانكفاء على الذات، أو العبادة في دهاليزها وصومعتها من هذا النص. هو مناجاة تمثال جميل الهيئة، وامواج من حرارة الانفاس تغمره عساها تبعث في أوصاله الدفء فيتحرك ليعانق الشاعر ويبادله الأحاسيس.

ومما لا شك فيه أن الحيدري اعتنق هذا المذهب الرومانسي وبقى متأثرا فيه وبكل عناصره ومكوناته، فظل ملتزما بقواعده مع ان الكثير من أقرانه تركوا هذا المذهب الجديد واتجهوا إلى مذاهب أخرى ، ولاسيما الواقعية، وبقى تحت أغصان شجرة الرومانسية ولم يخرج عنها باكيا شاكيا متحسرا متألما على ذكرياته .

وسنحاول في هذا البحث أن شاء الله ان نقف عند التنظير الرومانسي في شعر صفاء الحيدري من خلال مكونات وعناصر الجو الرومانسي الممتلئة بالحب والحرمان والإحباط والإخفاق والألم وغيرها من العناصر المكونة لرومانسية صفاء الحيدري

الإخفاق وتأثيره على نفسية الحيدري

لقد عرف علم النفس الإحباط وكثرت الدراسات حوله ، فقيل إنه الإخفاق ، وهذا الإخفاق يتمثل في عدم إشباع الرغبات الملحة عند الإنسان فيسبب في داخله إحباطا[٢] يكون هذا الإحباط وسيلة من وسائل رد الفعل ... والمتأمل في أشعار الحيدري يراها تمثل إخفاقا عاليا وإحباطاً قاسيا متكررا ... إذ يبدو من كلماته انه يمر بصراع داخلي لا يهدأ بسبب الإخفاق الموجود في تجاربه الغرامية التي يصور فيها حبا عاثرا بصور كئيبة وانفعالات داخلية لتترك بصماتها على شعره الذي يملؤه هيجاناً وثورة لا تهدأ .

ولم يفلح الحيدري في إخفاء إحباطه أو كتمانه، ولعله لم يكشف عنه كله، فبقي في نفسه منه أشياء تديم مذاق الإحباط في ذاته و(النفس البشرية تخفي في أعماقها ضربا من " مذاق التعاسة ") [٣] والتعاسة الذاتية عند الحيدري جعلته يكتب بلغة الاخفاق والاحباط واليأس .

تعاسة حياته جعلته يصطدم بالواقع ساعياً إلى الانعتاق من قيوده، ولكن بخطى متعثرة لاتقوى على المسير المنتظم مدة طويلة، كان متقلب الأهواء لا يستقر ولا يهدأ . عانى مرارة الفشل وخيبة الأمل والحسرة على لقاء بهيج يجمعه بروح يأنس إليها فذرف دموع غزيرة .

حرمان إثر حرمان، وخيبات أمل تتوالى. حرمانه العاطفي جعل إحاسيسه نحو المرأة قريبة من أحاسيس السياب، الذي صار شكله المتواضع وفقره (جداراً ساحقاً بينه وبين المرأة فاستمر طوال حياته يطلبها، ولا يصل إليها) [٤]

هذه العوائق والحواجز بين الشاعر وحبيبته تختلف من شاعر إلى آخر، وكان الحيدري كثير التفكير بهذه الحواجز التي تحول بينه وبين الحبيب ، يفكر فيها ويتأمل بحلولها فتراه لم يستقر له بال متوجعا من ذكريات الماضي ، فكان دائم القلق والحيرة ، يرسم لها صورا من خلال ذكرياته المؤلمة فيقول في قصيدة (الربيع):

وأطل

لكن الربيع مضى ولم ينمُ الجنى

جاء الشتاء

أتى ومر وعشته وحدي أنا

كانت غمائمه تمر وكنت أحسبها منى

بسطاً تزخرفها النجوم أتت لتهديها لنا

حتما ستمطرني بألف تحية لاتقتنى

قد كان موعدنا هنا يا هذه .. لوتذكرين

لكنني وحدي أنا

باقٍ مع الذكريات هنا [٥]

ولعل هذا الحب كان ممتدا طيلة سنين حياته التي أكد عليها في إهدائه (هذه قصائد حب إلى المرأة التي عشت معها بصمتٍ وعزلة وغربة طيلة السبعينات والستينات والخمسينات والأربعينات [٦] وأعظم ما كتب في ديوانه (الحب الكبير) .

ويبدو ان شاعرنا مر بتجارب عدة وعشق أكثر من واحدة لكنه لم يوفق بهذا الحب أو ذاك ، هذه التجارب المحبطة دائما والأليمة والمتمثلة بالتعاسة العميقة تمتد جذورها إلى وجدانه الملتهب المتحسر في اغلب قصائده ، جعلته يكتب بأنفاس وجدانية عذبة ، فالمرأة وتجارب الحيدري كانا دافعا للإبداع، وقد جعله هذا الإخفاق يتجه إلى لذة الكتابة ، وتبقى الذكرى من ابرز تجليات الإخفاق في شعره فيقول في قصيدة (إلى دنياي وأمسي) :

لا تسيئي

لصباباتي ، جراحاتي العميقة

لمواثيقي ، وأحيائي العتيقة

لا تظلي ، مثل ما كنتِ ، صفيقة

ماءُ وجهي لن أريقه

فبصمتي ، وبأعماقي ونفسي

غير ما في هذه الدنيا ، وكأسي

...

لي ذكرى حلمٍ – اذكرُ مراّ

كان وهماً

لستُ ادري ما إذا يرجع يوما

مرَ ، مرا (٧)

هذه الذكرى التي ظل يحلم بها، جعلت الشاعر محبطاً ومخفقاً في جميع تجاربه، وكذلك الجراحات العميقة كانت في وجدان الشاعر، فأنفاسه مليئة بصوت اليأس، لان الذكرى أصبحت عنده وهما .

وفي قصيدة (عالم بلا غد) نرى الشاعر محطماً يطوي نفسه ويصبح الماضي رماداً في نظره، حتى يشرب كأس انطفائه، ضياع أتى بإرادته واختاره لنفسه (العبثية) أو (البوهيمية) وهذا دليل واضح على صراعات الشاعر الداخلية التي نتج عنها الإخفاق فيقول:

ودعتُ امسكٍ وانطلقتُ بلا غد

وحملتُ – دون سواي – عبء تمردي

وطويتُ أمسي

وتركتُ نفسي

تضحي وراء رمادِ ماضيها وتمسي

بنيتُ رمسي

وضربتها كأساً بكأس

وشربتها حتى الثُمالة

نخب الضلاله

نخب انطفائي (٨)

لقد كان حبه وجدانيا، رغم ما فيه من مآسٍ إلا انه حمل أعماق وجدانيته فالذكرى تعيش مع الحيدري وتعشش في جوانحه، فعملية استرجاع الذكريات وتأثيرها

على نفسية الشاعر وخاصة (الحزينة) عملية نفسية طبيعية من إفرازات اللاوعي التي يمليها القلق في موقف وجداني يجسد مكبوتات التجارب العاطفية المحبطة، فعاش الحيدري بعذاب نفسي وألم طيلة أيامه متأثرا برماد الذكريات وبؤسه الذي لا ينتهي .

فأصبح الحب موضوع إخفاقه وإحباطه وألمه، ومن الواضح أن الحيدري مر بتجارب عدة لكي يستطيع ملء الفراغ العاطفي في قلبه و (لعل الحب وهم مقنط ، نداء باطل فارغ، يقفز دون انقطاع فوق أمل مرهق بالخيبات إزاء أشباح نظن أننا نحبها، لكنها تهرب باستمرار أمام أنفسنا)[٩]

فالمتأمل في أشعاره يجد انه عاش بصمت وغربة ووحدة (حيث لا يدوم حب ولا صداقة، حيث لا رفيق سوى الوحدة والاغتراب، فكأنما الشاعر الذي يجسد أحلام البشرية وآلامها يجسد أيضا غربة الإنسان وشعوره العميق بالوحدة في عالم يعج بالسكان)[١٠]

هذه الوحدة والغربة، جعلت الحيدري ربما يقترب من دائرة الحب، ويتجه نحو الوحدة وإطاعة الذات من خلال الإخفاقات المتواصلة في حياته فيقول في قصيدة (همس)

عشرون عاما لم يزل

قرع الطبول بجانبيك ، يدق ، ينبض ، لا أمل

عشرون عاما لم تذق شفة ، ولم تطعم قبل

ومع الصباح

في كل يوم

ألقاك وحدك في الطريق

أأضعت شيئا يا صديق !؟

أجل أضعت ... أضعت ذاتي

ودفنت كالجرح القديم هنا حياتي [١١]

وكذلك يقول في قصيدة (أيامنا) :

كنا نسير بلا نجوم

أو سماء

أو قمر

كنا نسير بلا تخوم

أو ضياء

أو بصر

وبغير دار أو وطن

وبلا مدار أو زمن

لم يبق في أعماقنا شيء ..... تنفس أو نظر

إلا الصبا ..... في الليل والصمت انتحر

كنا نسير بلا مدى

لم تترك الدنيا لنا درباً ولا أبقت هدى

لا أمسنا عشناه أو نرجو غدا

لم نحي ..... لم نترك صدى(١٢)

اتسمت هذه التجارب بالإحباط والإخفاق المتواصل، فطريقه بلا نجوم مضيئة ولا سماء صافية ولا قمر منير، فلا ضياء ولا بصر، ولا وطن، تجارب مريرة تتوالى الواحدة تلوى الأخرى على الحيدري، تقتله وتجرده من كل شيء، حتى التنفس والنظر جرد منهما، فالأمس مات والغد لا تأمل فيه .

ويطلعنا في قصيدته (طريق الخيبة) على أوسع معاناته وتحسره الشديد على ما فقده وما حرم منه، هذه القصيدة التي مثلت الجو الرومانسي من خلال ألفاظها (الموت – القبور – الخراب – الليل العميق – الدماء – العناء ... الخ) ولا تخلو من وقفة طللية، فنحى الحيدري فيها منحاً رومانسياً رسم أبعادها من عنوانها (طريق الخيبة) فيقول:

فارتد طرفي للصغر

فرأيتُ في ضوءِ القمرْ

أطلالَ تلكَ مدينتي كقبورِ كوكبٍ اندثرْ

لم يبقى منها من اثر

إلاّ أنا

ومحاجرُ

.....

ومدى النظرْ

تمتدُ صحراءُ الضجرْ

ضمأٌ وموتٌ منتظرْ

.....

لفمي لوجهي في عناءْ

فسمعتُ في صمتي بصحوة انتهاءْ

صوتاً بأعماقي . نداءْ

كخفوقِ أجنحةِ الفراشةِ في المساءْ

عش ما تشاءْ

عش ما تشاءْ

وانس النساءْ (١٣)

إن التجربة الباطنية تعيش في وجدان الشاعر نفسه فهي ذاتية، لقد ساعدت عوامل عدة في إحباطه وإخفاقه بينها من خلال شعره وتعثره المستمر في محاولات الحب، فعبر عنها ورسم صور إخفاقه ومعاناته بكلماته الشجية ، وكذلك لا يخفى عن القارئ أن نفسية الحيدري قلقة ومضطربة وفي حيرة من أمرها، لربما كان السبب تلهفه العاطفي وكثرة هواجسه وقلقه واضطرابه النفسي، التي نتج منها صراعه النفسي المستمر ... فضلاً عن نكبات الحياة التي امتزجت مع تجربة الحب العاثر وهي الاستيلاء على ما ورثه من أمه وأبيه من أراضٍ وأملاك وبساتين من قبل الحكومة لعدم تسجيلها باسمه .

فالشاعر لا ينشد سوى آلامه وأماله ويأسه وإخفاقه وقنوطه .

الحب والمرأة

اخذ موضوع الحب يتسع في دواوين الحيدري وبدأت دائرته تتسع أيضا، فالحب عند الحيدري تجسيد لعواطف الإنسانية نابعة من الوجدان الذاتي وتجربة شعورية صادقة.

لقد أدرك صفاء الحيدري مفهوم الحب وقدسه لدرجة أن يلون جميع أبياته بلون رومانسي ولا يبتعد عن محور الحب والعشق والمرأة، وهو كأقرانه في مرحلة الخمسينيات إذ كان توجههم توجها وجدانيا في اغلب قصائدهم لان الشاعر يبدأ من المرأة وينطلق إلى عوالم أخرى وكذلك (لان الحياة تبدأ من جسد المرأة، ولأن الحب أعمق من تجربة ميتافيزيقية عرفها الإنسان، بل أنها أعمق العواطف الإنسانية تجذرا في الكيان البشري وأقربها إلى التعبير عن النفس وترسيم الذات، ومنحهما أسس الثبات بحيث يمكن القول انه، في كثير من الأحيان لدى الفنانين عامة، والشعراء خاصة، يقوم على التمركز الذاتي وحب الحب وفي هذا توافق بين الحاجات الحيوية والمشاعر الوجدانية، لأنه في الحب شيئا من كل شيء)[١٤]

فالحب شغل الحيدري وسيطر على فكره وخياله، إذ نبع من صميم قلبه ووجدانه وهو (حالة عاطفية مركبة تشمل كيان الإنسان بكامله وعقلا وروحا وتمتزج فيه عوامل عديدة مثل اندفاع الشهوة والانفعال العاطفي والهوى والعطف والتجاوب والتعاطف والمودة والنزوع نحو التضحية في سبيل مصلحة المحبوب وهنائه وسعادته.[١٥]

فتحول الحب إلى قضية فلسفية ومعاناة ورؤى وتأملات يتسع منظورها ليعبر عنها تعبيرا فنيا ويشمل فيها جوانب سايكلولجية ونفسية فأصبحت عنده قضية فكرية شاملة .

فينطلق بكل ما يمتلك من طاقة عاطفية وقدرة تصويرية، ليصورها – المحبوبة – ويصور تضحياته من اجلها سواء أكانت مقدرة لهذه التضحيات أم لا، ثابتة أم متحولة، واصلة أو هاجرة، في كل الأشكال يعطيها الحيدري نفساً واحداً. والملاحظ في قصائده (الربيع) (الهجرة إلى الداخل)(دقائق وثوان)(أنا أمسي وغدي)(أول حب)(اكتمل

القمر) (نداء) (حبيبتي الحضارة) ، إن معظم هذه القصائد تصور تجارب صادقة حية عاشها الحيدري وتعامل معها تعاملا عاطفيا محضا ...

ففي قصيدة (حبيبتي الحضارة) وصف وتعظيم وتقديس لحبيبته، وهذا نابع من خياله الرحب فيقول:

(حبيبتي الحضارة)

حبيبتي ساحرةٌ كأنها تميمة

لؤلؤة يتيمة

اسكنها ادمُ في أحلامهِ العظيمة

زان بها عالمه . حريمه

حلّ بها طلاسمَ الديمومة

لخص فيها عمره . حاضره . قديمَه

.....

حبيبتي أفكارْ

ضفيرةُ من نارْ

قلدَها مسلطٌ عقداً من المحارْ

إطارُه أزهارْ

اخفتْ بها ماساتها من أعين التجارْ

في غسقِ التاريخ والأقدارْ

في زمنٍ شاختْ به الأعمارْ

وابتردت أقمار

حبيبتي جميلةٌ غزيرةُ الألوانْ

نموذجٌ قد أبدعته ريشةُ الفنانْ

مذاقها أتقنه مصممُ الوجدانْ (١٦)

والحب عنده سمة نفيسة ووجدانية، تستحضر صورها من واقع ملموس فتتفاعل معه النفس لترسم صورة تجربته الوجدانية بإحساس فياض يحسن فيه حنينا رومانسيا فيتغنى بهذا الحب بحس عاطفي فيقول في قصيدة (كفارة)

(كفارة)

كفرتُ عن حبي بحبك وتعلقت روحي بقلبكْ

وغرقت في عينيك تنزف مهجتي رمشات هدبكْ

ببحيرة خضراء ، أروعُ سحـــــــــــرها أني بقربكْ

فاذا نظرتِ، تضاءلت شهـــبُ السماء أمام شهبكْ

وإذا بكيتِ تساقطت كـــــــــل الكواكب فوقَ ثوبكْ

فمضيتُ أمشـــــــــــي لا أعي ملتمساً أثارَ دربكْ

فأذوبُ فيكِ ، أحب كالنهـــــر المُقدس في مصبكْ

يكفيكِ انكِ نلتِ مـا شاء الصبا من قلبِ صبك [١٧]

والحيدري يبث بهذه الأبيات وجدانه الصادق وبإحساس حي فتعالق الروح انسجام نفسي ينتج من الإحساس والرغبة الصادقة ويزيد الصورة بالغرق في العينين وبسحر جمالها، ويعطيها بعد أخر بنظرتها القاتلة وبكائها، كذلك يذوب فيها ويقدسها ...كل هذه الصور صبت بلوحة متكاملة متجانسة بجوانبها ومضامينها، ومنبعها الإحساس والرغبة التي تعمل من اجل الإحاطة بجوانب الصورة الرومانسية وهذا مظهر من مظاهر شعر الرواد وجيل الخمسينيات التي تجمعهم (حدة إحساسهم ورغبتهم في إبراز هذا الإحساس الحاد بأقصى ما يمكن من البيان والتأكيد، ويتحقق هذا التأكيد ببناء العبارات الشعرية في الأبيات المتتابعة على نمط لغوي وبياني واحد)[١٨]

يحلق الشاعر في خيال رومانسي ليحقق النظرية الرومانسية المشهورة (الما وراء)[١٩] أي العالم العلوي الذي تتجاوز الرؤية الداخلية فيه عالم المرئيات، فعن طريقة الخيال يصل الشاعر الرومانتيكي إلى عالم (الما وراء)[٢٠] ، فالشاعر يتجاوز فيه حدود الزمان والمكان ويسعى إلى الهروب من الواقع ليعيش في خياله هذا الذي نقله إلى عالم (ألما وراء) [٢١]. فيقول في قصيدة (حب ولا حب)

كان حبي

كل ذنبي

كان من قلبٍ لعينينِ

ومن عين لقلبِ

كان شيئا لم أجدهُ

في أقاصيص وكتبِ

لم يكن يبدو كصعبِ

كان أغرى من ليالٍ

ذات أقمار

وشهبٍ

كان حبي [٢٢]

وهذه فلسفة الحب عند الحيدري، التي جعلته يستقطب المحبوب والاندماج معه ومع ذاته ثم التوحد كالروح والجسد فيقول في قصيدة (في القلب):

يا آهة غرستها ها هنا

في القلب ... حتى جئتُ اسقيها

وجدتها قد ملأت أضلعي

شدواً وألحاناً أغنيها [٢٣]

وفي قصيدة (عينان) شعور وجداني وتأثير نفسي ، فيه صدق المعاناة والمناجاة وبتجربة شعورية عميقة فيقول :

عينان هذي السماء هذا الصباح المساء

جزيرة سحرها الاشقر خمر وماء

سماؤها في دمى سالت مسيل الدماء

اعيش وحدي بها كنجمة في الفضاء

انا على كوكب منها اهش الضباء

انا على افقها النائي مدى وانتهاء

انا بها بلبل انشد وهي الغناء[٢٤]

وكذلك في قصيدة (عيناك) يقول:

عيناك، يـــا للمغرب المخضلّ يا لرؤى الأصيل

لعبت بها النسمات فانعقد السحابُ على النخيل

عيناكِ، يـــا لتلون الذكرى، على الوجه الجميل

وتلفتِ الماضـــــي يثرثر بالسؤال عن الطلول

وتكســر السحر المدل، أمام طوفان الميول [٢٥]

فالمرأة كل شيء في حياة الحيدري وحياته تحيا بهذا الحب وبهذه التجارب العميقة، تجعله في عالم أسمى من عالم البشر (المثالية) التي يرى فيها سمو وطهارة وصفاء المرأة، فالحب وكما قلنا فلسفة خاصة عند الحيدري بصفته (الحب ان يسلم شخص تماما نفسه لآخر، وان يتنازل له عما يملك، وما يعتقد، فلا يرى إلا بعينه، ولا يسمع إلا بإذنه أي أن تصير واحداً في اثنين ... وترى كل الخلق والوجود في الشخص الآخر فينتقل مركز الحياة عندك إلى هناك ، وتكون مستعدا لأكبر التضحيات وإنكار الذات ، ومستعدا لان تتألم على الصدر الثاني كأنه صدرك انت هذا هو الحب)[٢٦]

أعطى الحيدري أهمية بارزة للحب بصفته أساس الحياة وسر عذوبتها، والمرأة كيانها الذي لا يستغى عنه، هذه لمسات وجدانية ومشاهد عاطفية صورها الحيدري من عالمه النفسي الداخلي لربما لا ترتبط بعضها بتجربة خاصة من الحياة، فالشاعر صور فيما تقدم أحلامه وأوهامه وأيامه وذكرياته وحبه، فجسم فيها خواطر النفس وجسد فيها تأملاته العاطفية وأحاسيسه وانفعالاته الموحية .

اثر الخيال في آلام الحيدري

الألم رافق الحيدري في اغلب تجاربه ومع كتاباته التي جسدت آهاته وآلامه، ولعل هذه الإبداعات والكتابات ناتجة من الألم، لان العبقرية والإبداع وليدا الألم والحرمان .

والحيدري صور حزنه وبائسة ونفسه المتألمة وقلبه المتلوع بالأسى والغربة المرة، ان أحزانه لا تنتهي وتتسرب الواحدة تلو الأخرى فتجاربه المستمرة واحباطاته وإخفاقاته جعلته متألماً دائما .

ولعل الهروب من هذا الواقع المؤلم عند الحيدري جعله يتجه إلى الشعر بصفته المنفذ و المتنفس عن الآلام، فلولا عذاب الحب وآهاته لما كتب الحيدري دواوينه ومطولاته التي فيها روحه المتألمة المتمزقة، فهذه الأشعار جاءت تعبيرا عن معاناته .

إن التعبير عن هذه الآلام كان بحاجة إلى قدرة خيالية لخلق الصور (ويقتضي ذلك أن يكون الخيال خلقا جديدا يتحرك في روح الكلمات وينهض فوق صروح العبارات، وفيه تتحقق الموضوعية بين الصور الشعرية والترابطات الشعورية) [٢٧]

فالخيال من أهم الأسس التي تعتمد عليها الرومانسية إذ يساعد على رسم صور الرومانسيين ويخلق جواً رومانسياً من خلال الألفاظ الدلالية وهذه الألفاظ (تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمه الشعرية) [٢٨]

وبهذه الألفاظ شكلت صور الحيدري الخيالية المتألمة التي جسد فيه عذابه وحرمانه ، فحاله حال أصحاب المزاج الرومانتيكي الحزين الشجي المليء بالحرمان وبالالم العميق، الألم الذي قال عنه (الفرد دي موسيه) : (المرء طفل معلمه الألم) وقال : (لا شيء يسمو بنا إلى العظمة كما يسمو الألم) [٢٩]

هذا الأمل جعل الحيدري يضم الأمس وروحه بقبر واحد كما في قصيدة (أنا وأمسي وغدي) التي تمثل واقع مرير له فاستخدم الخيال الرومانتيكي لكي يجسد آلامه وعاطفته ويهرب من عالم الواقع (الايمان الشديد بقدسية العاطفة وعلى ضرورة التحليق في عالم الخيال والأحلام هربا من عالم الواقع) [٣٠] فيقول:

وليال وسنين

مثقلات بالحنين

كان فيها شاهدي

أنجم ترعى بليلٍ كضمير الحاقدِ

لألأت وانطفأت

واختفت خلفَ غلافٍ جامدِ

بين أفقٍ ، وضبابٍ ، وسكونِ

و دجون

فدُفنا

أنا والأمُس بقبرٍ واحدِ (٣١)

ويقول في قصيدة (أنا اسهر) :

أنا ها هنا وحدي

أئن ُ ، أذوبُ ، أحيا ، اضمحلُ ، أفكرُ

ورؤاي تلك رؤاي فوق محاجري تتكسر

وبدأت اقرأ ما رووه وسطروا

كانت هنالك واحدة لاثنين فيها نسهر

....

واتيتُ وحدي بعد أعوام هنا أتعثرُ

وحدي اجل وحدي بماضينا معا أتعطر

فرأيت ثمَ غمامة سوداء تسحب ظلها فوق الغصون فينشرُ

تعوي ، تصيحُ ، تزمجرُ

تطوي الربيعَ ربيع أيامي . فتنكفئ السنين وتعثرُ

فإذا مراعي الأمس. الأشجار والأزهار

كل الكائناتُ مدمرُد

إلى ان يصل قوله:

أمس رأيتُ هنا فراشاتٍ ملونةً تطيرْ

كانت تحطُ على الزهور ، وتستريحُ على الغديرْ

تصغي إلى همس الجدَاول و ارتعاشات العبيرْ

واليوم لا أمسٌ ولا غد فوق صحرائي يسيرْ

هجرت فراشاتي الرُبى ، ومضت بصمتي تستجيرْ (٣٢)

ويطالعنا في إحدى قصائده بتجربته المريرة وبقائه وحيدا، وينقل شعور وأحاسيس وجدانية صادقة نابعة من قلبه، فالشعر العظيم هو الذي يتناول حقيقة مهمة من حقائق النفس الدائمة أو حقائق الوجود الخالدة في تأدية بارعة محكمة . (٣٣)

فيقول في قصيدة (حسابات صغيرة)

وافترقنا

أنت للأنجم ، للشمس ، ولليوم المُواتي

حقل حبٍ تعزف الريحُ عليه تمتماتي

أنا – حيث أنا – باقٍ غريباً ووحيداً

مثلما كنتُ وحيداً وغريباً

جثة ينقصها الدفن وتأبينُ النعاةِ (٣٤)

ولعل الحرمان يدفع الشاعر نحو التسامي مع المرأة والحبيبة ويفتح خياله على عالم أوسع تغذيه الأشواق واللوعات فتجعله يغرد على غصن الحبيبة .

اثر الطبيعة في شعره الرومانسي

لقد حظيت الطبيعة بنصيب وافر في شعر الحيدري كونها تأخذ الجو الرومانسي، فتفنن بها ورسم مكوناتها من انهار وجبال وسماء ورياض وأزهار وثمار وخضار ... الخ.

فالحيدري تفنن بما يرق له القلب، ويتفاعل مع الوجدان ويتلذذ به البر وتعشقه الاذن من سماع عنها ... فراح يبحث عن سر جمالها، فاخذ ينظر إلى أمواج البحر وخطوط الأفق والنجوم والكواكب والسماء الصافية والجبال والأشجار والأزهار التي تشكل سر جمال الطبيعة وتثير الوجدان، يبث فيها شقاء الحياة ولوعة القلب، يتنفس عبيرها، يرتمي في أحضانها عندما تتخلى عنه كل الأشياء، يشكو وحدته ويتشوق لذكرياته ويفتقد أمسه عن طريقها، فيقول في قصيدة (امرأة بلا شكل):

الصمت والشاطـــئ الشاحـــب في الليل
والأفق المعتـــــمُ المصهور فـي الظل
والذكريات التـــــي بناظري تغلـــــى

.....

كم كنت في وحدتي أبحث عـــــن شيء
افتقد الأمس فـــــي النور وفـــــي الفيء
كأنني طائـــــــــر أغوص فـــــي النوء
لاشيء مما مضى يعوم فـــــي الضوء
غير صدى مبهـم يموء فـــــي العتمـه (٣٥)

الحيدري يرسم أبعاد تجربته المحبطة تحت ظل الطبيعة متخذها وسيلة لبث شكواه وألمه، فكلماته كلها تصب في جو رومانسي محطم (الصمت) و(الشاطئ الشاحب) و(الافق المعتم) (والذكريات تغلى) وو(حدته) و(افتقاد الأمس) و(طائر في النوء) وبالنهاية لايجد سوى صدى مبهم يموء في العتمه دليل مآسيه وتجاربه المحطمة.

فالطبيعة تعتبر المصدر الروحي للرومانسيين، اذ يستمدون منها الصور والعبر، فقد عشقوا الطبيعة وهاموا بها وتغنوا بمفاتن المعيشة القروية في قصائد كثيرة، وهذا ناتج من رهافة احساسهم بها وتعاطفهم معها، فلم يكتفوا باستلهام موضوعاتهم منها لمناجاة الريح والليل والنجوم والغاب والزهر والطير، ولم يقتصروا على احياء الجماد واستنطاقه، واشراكهم

في الامهم وافراحهم، وتصوير حالاتهم النفسية من خلال منظر طبيعي فقط، وانما اندمجوا واتحدوا بالطبيعة لدرجة الفناء الصوفي بصفتها الأم الخالدة التي فيها يخلدون[٣٦]

فكل شي في الطبيعة آثار الحيدري، فنراه يرسم جمال المعشوقة من خلال عناصر الطبيعة، فيحيا مع نورها ويمسي مع غروبها، فيقول في قصيدة (عينان) :

عيناك هذي السماء هذا الصباح المساء
جزيرة سحرها الاشقر خمر ومـــــــاء
سماؤها في دمـــــي سالت مسيل الدماء
اعيش وحـــدي بها كنجمة في الفضـاء
انا على كوكب منها آهش الضبـــــاء

.....

انا بها بلبـــــــل انشد وهـــي الغناء
عيناك أنشودتـــان عيناك فراشتـــان
أطفأت ناري فلـــم يحترق الجناحـــان

.....

أمـــــواج شطيهما جاءت من اللامكان
طاف بهـــا زورقي شواطـــئ الأرجوان

.....

عيناك كالشمس اذ تشرق او تغرب[٣٧]

يتفاءل الحيدري في هذا النص، ويشبه جمال حبيبته بسحر الطبيعة، فعيناها الصباح والمساء، جزيرة ساحرة، بلبل يغرد في فضائها، عيناها فراشة بالوانها اللطيفة، ويطوف بشواطئها الباهرة، عيناها كالشمس عندما تشرق وتغيب، صورة فاتنة يرسمها الحيدري للحبيبة.

مما تقدم نرى هذه الحالات الرومانسية، لا يراها الشاعر في الطبيعة، إلا بعد أن تتبلور في أعماقه ووجدانه فينفعل بها، ويذوب في أحضانها، فالطبيعة شغلت وجدان الشاعر الرومانسي، إذ وجد فيها مهربا من الحياة، وملاذاً للسكينة والهدوء، فهي ليست حلية ولا دمية ولكنها قلب ينبض بالحيوية والحياة.

وأخيرا يمكن عد صفاء الحيدري من شعراء الرومانسية في الشعر العراقي إذ وقف على عناصرها ومكوناتها ورسم أبعادها وصورها بحس رهيف وبجمال فني من خلال تجربته الشعورية، فهو يميل بشعره إلى الارتفاع بالمرأة فوق المادة، فلا يرى فيها الجسد الحار والأغراء وانما يراها الملاك الطاهر والنسمة الطيبة والهمسة الناعمة ولحن الحياة الدافئ، فاستسلم لضرب من العاطفة الجامحة وتوقه إلى التساؤل المستمر، فعبر عنها بتجربة شعرية واضحة تلابست معه وفتحت بصيرته إلى عالم أرحب وأوسع، كما أثرت فيه تأثيرا قويا دفعته إلى الأعراب عن واقع الحياة .

كذلك تأثر بالرومانسيين الذين (قدسوا الحب، قدسوا المرأة التي بدت لهم في فتونها وغموضها وقوتها الإلهامية نموذجاً فذاً للجمال الذي نشدوه، أو قبساً من الجمال الخالد في عالم المثل الأفلاطونية) [٣٨] . وهذا التأثير واضح من خلال لمساته الرومانسية في كتاباته فاعتنى بفلسفة الحب .

ولربما الحيدري كغيره من الشعراء الرومانسيين الذين اعتنقوا هذا المذهب الذي يفرغون فيه معاناتهم ومآسيهم وما قاسوه من الحياة، فكان تعبيراً عن لوعاتهم و(لان ظروف حياتهم القاسية التي انغمسوا في حمأتها، وذاقوا صابها وعلقمها، جعلتهم يفرون إلى شعر الحب والمرأة، ويطفئون به جمرة البؤس والحرمان المضطرمة في نفوسهم. المتوقدة بين جوانحهم، ويذهبون به صدى أرواحهم، ويتخذون منه غذاء يعوضون به ظلم الدهر لهم وتحامله عليهم، ولقد أسهموا جميعا بأشعارهم في تلك الناحية بل أكثروا منه في دواوينهم وسائر نتاجهم الشعري كثرة لافتة للنظر داعية إلى التأمل) [٣٩] وهذا واضح عند جماعة ابولو الشعرية الذي يبدو ان الحيدري تأثر بهم، في شكواه الحزينة واستعذاب ألم الحب واستلذاذ عذاباته، فغرد بصوت الرومانسيين وتأسف على ما فاته من ذكريات وبكى وشكى حاله وألمه .

The features of Romanticism in safa al-Haidari 's Poetry - A Critical study -

Romanticism speared as a literary school based upon by – passing the prescribed rules the belief in the dominance of imagination over that mind . lt also relies upon symbolism as well as mystery and its unbridled penetration into the realm of imagination which tends to be subjective is obvious .

It appears, though , that the Apollo poetic group which has been setup on the basis of modern critical maturity has believed in this poetic tenet. So , in the aftermath of the thirties, Arabic poetry used to have modern concepts due the straightforward understanding of his own experience – This, in fact , can be viewed clearly through the transition of the poets affiliated to this school to the romantic poetry because of the harsh life conditions.

Of those whe were influenced by this new movement ,i-e. the Apollo poetic school was safa' al- Haidari 's who composed most of his poems in the manner of the romantic atmosphere This romantic atmosphere constituted a safe haver for the poet in which he embodied his own agonies as well as those of the Arab Nation, thus he represented all that with sincere spirit emanating from his conscious experience . This means that he has adopted this trend as a means of honest expression of his own afflictions as well as his psychological suffering.

Al- Haidari has employed ereative imagination in the depiction of his own painting therefore, he is able to represent the beloved through a splendid artistic style tinged with plaintive tunes set t. depict all the distresses of deprivation and the wistfulness of lovers : in additner, he represents the images of frustration, failure in love and the scope of their influence on the self. To him, the beloved is not true, but the concept is something transparent full of trickery.

She is, bewildering and confounding enigma. This, however, is observable in his poetic exemplifications.

Al- Haidari his embodied his cause, amongst others, in his tornantic poetry which is characterized by sincere passion and ingenious imagery .

In other words, he is well capable of expressing matters relevant to artistic flavour through imaginative style and fervent tune full of vivacity, vividness and vigour. This, so to a peak, is so apparent in his diction that an investigator and meditator in his poetry could easily trace the romantic strain and its basics . ln matter of fact, all this is an evidence that he is endowed with literary culture.

الهوامش

[1] المجموعة الكاملة : ٢٧ .
[2] الصحة النفسية : ١٧٠ ، علم النفس والمجتمع : ١/ ١٤٧
[3] انتصارات التحليل النفسي :٢٠٤ .
[4] بدر شاكر السياب : شاعر الوجع : ٨٥ – ٨٦
[5] المجموعة الكاملة : ٥٦.
[6]. المصدر نفسه : ٢٧.
[7] المصدر نفسه : ٧٥.
[8] المصدر نفسه : ٦٩.
[9] انتصارات التحليل النفسي : ٢٠٨ .
[10] التمهيد في النقد الحديث : روز غريب : ٢٩٤ .
[11] المجموعة الكاملة : ٢٠٢.
[12] المصدر نفسه : ٣٢٦.
[13] المصدر نفسه : ٧٨.
[14] رماد الشعر : ٩
[15] في الحب والحب العذري : ١٢ .
[16] المجموعة الكاملة : ٢٠ – ٢٢ .
[17] المصدر نفسه : ١٣٠ .
[18] الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر : ٤٤٠
[19] ينظر : الخيال الرومانتيكي : ٣٣١ .
[20] المصدر نفسه والصفحة ، . ينظر : النزعة الرومانتيكية والواقعية في الأدب : ٣٨
[21] ينظر : الخيال الرومانتيكي : ٣٣٤ .
[22] المجموعة الكاملة : ٤٠ .
[23] المصدر نفسه : ٣٤٤ .
[24] المصدر نفسه : ٢٤٢ .
[25] المصدر نفسه : ٣٣٦
[26] ابراهيم ناجي : كيف نفهم الناس : ١١٨
[27] تطور الشعر الحديث المعاصر : ٢٧٠
[28] تطور الشعر العربي الحديث في العراق : ٤٦ .
[29] في الأدب والنقد : ١٢٦
[30] الرمزية والرومانتيكية : ١٨
[31] المجموعة الكاملة : ١٤٠
[32] المصدر نفسه : ١٠٦ .
[33] ينظر : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث : ٣٥
[34] المجموعة الكاملة : ١٠٨ .
[35] المصدر نفسه: ٢٣٧.
[36] ينظر: تمهيد في النقد الحديث : ٢٨٣
[37] المجموعة الكاملة: ٢٤٣.
[38] تمهيد في النقد الحديث : ٢٨٥
[39] مدرسة ابولو الشعرية في ضوء النقد الحديث : ٢٠٢ – ٢٠٣

المصادر والمراجع

١. إبراهيم ناجي، كيف تفهم الناس: علي الفقي، سلسلة الأعلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧ م .
٢. الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٨م .
٣. انتصارات التحليل النفسي: داكوبيير، ترجمة: وجيه اسعد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٣ .
٤. بدر شاكر السياب شاعر الوجع: د. انطونيوس بطرس، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان .
٥. تمهيد في النقد الحديث: روز غريب، ط ١ ، دار المكشوف، بيروت - لبنان ١٩٧١
٦. تطور الشعر الحديث المعاصر: د. عمر الدقاق و د. محمد نجيب التلاوي و د. مراد عبد الرحمن مبارك، ط ١ ، دار الاوزاعي، بيروت – لبنان ١٩٧١ م .
٧. تطور الشعر العربي الحديث في العراق: اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج، د . علي عباس علوان، منشورات وزارة الأعلام – بغداد ١٩٧٥ م .
٨. الخيال الرومانتيكي: سير موريس بورا ، ترجمة : إبراهيم الصوفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧ .
٩. الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني: أمية حمدان ، دار الرشيد للنشر ، العراق ١٩٨١ .
١٠. الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث: مصطفى عبد اللطيف الشمري ، مطبعة المقطم والمقتطف بمصر ١٩٤٨ م .
١١. الصحة النفسية: مصطفى فهمي، ط ٢ ، دار الثقافة ، القاهرة لا . ت .
١٢. علم النفس والمجتمع: عزيز فريد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة . لا. ت .
١٣. في الأدب والنقد: محمد مندور ، دار نهضة مصر – القاهرة . لا . ت .
١٤. في الحب والحب العذري: صادق جلال العظيم ، ط ٨ ، دار المدى للثقافة والنشر – سوريا ٢٠٠٧ .
١٥. المجموعة الشعرية الكاملة: صفاء الحيدري، مؤسسة ايف للطباعة والتصوير ، لبنان .
١٦. مدرسة ابولو الشعرية في ضوء النقد الحديث: د. محمد سعد فشوان ، دار المعارف بمصر
١٧. النزعة الرومانتيكية والواقعية في الأدب: حلمي مرزوق ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠ .